

□ د. مسلم شلتوت

□ الحديد أحد سبعة عناصر عرفها القدماء وهي: الذهب والفضة والزنابق والنحاس والرصاص والحديد والمقصدير. وهو أكثر الفلزات انتشاراً في الطبيعة؛ فيوجد أساساً في الحالة المركبة على هيئة "أكسيد" و"كبريتيد" و"كربونات" و"سيلكات" وتوجد كذلك مقادير صغيرة من الحديد الخالص في المشهب والنيازك الحديدية.

□ ويمتاز الحديد وسبائكها المتنوعة بخواص متعددة ومتفاوتة الدرجات في مقاومة الحرارة والمشد والصدأ والبلى وفي مرونة تقبل المغناطيسية وغيرها؛ ولذلك كان أنسب الفلزات لصناعة أسلحة الحرب وأدواتها وأساساً لجميع الصناعات الثقيلة والخفيفة ودعامة للحضارات.

□ والحديد منافع جمة للكائنات الحية؛ إذ تدخل مركبات الحديد في عملية تكوين "الكروموفيل" وهي المادة الأساسية في عمليات التمثيل الضوئي التي ينشأ عنها تنفس النبات وتكوين "البروتوبلازم" الحية وبواسطتها يدخل الحديد جسم الإنسان والحيوان. □ ويدخل الحديد في تركيب بروتينات النواة (المادة الكروماتينية) في الخلية الحية. كما أنه يوجد في سوائل الجسم مع غيره من العناصر وهو أحد مكونات "الهيموجلوبين" المادة الأساسية في كرات الدم الحمراء ويقوم بدور هام في عملية الاحتراق الداخلي للأنسجة والتمثيل الحيوي بها.

□ والحديد يوجد كذلك في الكبد والطحال. والكلى والعضلات والنخاع الأحمر. ويحتاج الجسم إلى كمية من الحديد يجب أن يزود بها من مصادره المختلفة؛ فإذا نقصت تعرض الإنسان لعدة أمراض أهمها فقر الدم. والرمز الكيميائي للحديد هو Fe وهو العنصر رقم (26) في الجدول الدوري للعناصر؛ حيث إن عدده الذري (عدد الإلكترونات حول نواته 26) (الإلكترونات ووزنه الذري 56). وله نظائر متفقة معه في العدد الذري، ومختلفة معه في وزنه الذري ووزن النواة. وهو عنصر من العناصر النشطة كيميائياً. ودرجة حرارة انصهاره وتحوله إلى سائل 1535 درجة مئوية. ودرجة غليانه وتحوله إلى بخار 2750 درجة مئوية.

□ لقد نزل القرآن في عصر الحديد؛ حيث كانت تصنع السيوف ورؤوس الرماح والمساهم منه وكذلك الدروع والخوذات وغيرها من أدوات ولباس الحرب. كما كانت تصنع منه فؤوس الحقل.. وسلال المحاريث لشق الأرض للزراعة؛ فلما غرابة أن يأتي ذكره في القرآن الكريم وأن تكون سورة تسمى سورة باسمه "الحديد" وقد أشارت الآية الكريمة رقم 25 في سورة "الحديد" إلى أن الحديد ذو بأس شديد ومنافع للناس؛ حيث يقول الله تعالى: (وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس) وقد فسرت هذه الآية الكريمة في "المنتخب في تفسير القرآن الكريم" الصادر عن "المجلس الأعلى للشئون الإسلامية" عام 1993 م على النحو التالي: "وخلقنا الحديد فيه عذاب شديد في الحرب ومنافع للناس في السلم يستغلونه في التصنيع؛ لينتفعوا به في مصالحهم ومعاشهم". وواضح هنا أن المفسرين قد أخذوا المعنى المجازي لكلمة "أنزلنا" بمعنى "خلقنا" ولم يتمسكوا بحرفيات الكلمة بأن الحديد نزل إلى الأرض من السماء. و تعد الفترة من 6 آلاف إلى 3 آلاف سنة قبل الميلاد العصر الحجري المتأخر الجديد وقد تعلم الناس خلال هذا العصر صناعة الغذاء وقدر النار من الاحتكاك فيما يمكن أن يكون أول تفاعل كيميائي تتم السيطرة عليه وقد دجنوا الحيوانات واخترعوا المحراث والعجلة والشرع وتعلموا كيف يغزلون وينسجون ويصنعون قمائن الضخار النارية. وفيما بين السنوات 6 آلاف و 3 آلاف قبل الميلاد تشكلت مادة جديدة بواسطة الطرق هي النحاس؛ ومكنت هذه المادة الناس من صنع أدوات جديدة ساعدت - مع تطور الزراعة - في نمو المجتمعات الزراعية في مواقع ثابتة؛ حيث يعتبر النحاس واحداً من ثلاثة معادن: النحاس والفضة والذهب التي يمكن أن توجد في الطبيعة في شكل خالص؛ ويتصف المعدن الخالص بسهولة الطرق وسهولة التشكيل حتى بدون نار ودرجة انصهار النحاس وتحوله إلى سائل 1083 درجة مئوية.

□ وأصبح الكثيرون من جامعي الثمار المرحل يعملون في الأرض. وفي الفترة التي هي حوالي 4 آلاف سنة قبل الميلاد بزغت الحضارة...؛ فقد خلط السومريون في بلاد ما بين النهرين (العراق حالي) النحاس بالمقصدير ليصنعوا مادة جديدة هي البرونز؛ ووجدوا أن المادة أسهل نسبياً في السبك وأصلب كثيراً من النحاس وحده. وأمكن استخدام البرونز في صناعة أدوات أطول عمراً مثل: المعازق والمجاريح والسكاكين التي تحتفظ بحدة سلاحها لفترات أطول. وكان اكتشاف البرونز ذا أهمية خاصة؛ حتى إن عصره بأكمله من التاريخ العصر البرونزي اكتسب اسمه من استخدامه. غير أن هذا المصطلح لا يمكن تحديده بزمان معين لأن الحضارات المختلفة كانت قد اكتشفت استخدام البرونز في فترات زمنية جد مختلفة وبعض الحضارات لا تعرف العصر البرونزي كما هو الحال في فنلندا وشمال روسيا وبولندا ووسط أفريقيا وجنوب الهند وأمريكا الشمالية وأستراليا واليابان؛ فقد قفزت هذه الحضارات مباشرة من الحجر إلى الحديد. ويصل تاريخ الأشياء البرونزية المصرية إلى ما يقرب من (3) آلاف سنة من قبل الميلاد. ولكي يقوم المصريون القدماء بصنع البرونز فإنهم كانوا يستوردون خام القصدير من بلاد فارس على الأغلب أو من بلاد "هندكوش" أفغانستان حاليًا.

كان الحديد معروفاً في مصر ربما منذ السنة 3 آلاف قبل الميلاد لكن اسمه كان "فلز السماء"؛ وهو ما يعكس كون أول عينات منه من مصدر نيزكي وقد استخدموه في صنع حلي الملوك والمزارعة لكنهم عدلوا عنه بعدما وجدوه يصداً. وكان الحديد بذلك يعد شيئاً غير مأدوف وأبعد عن كونه بضاعة أو سلعة؛ ومع ذلك فإن عينات الحديد المحضر بالصهر من خام الحديد وليس من النيازك ربما كانت تنتج في بلاد ما بين النهرين وشمال سوريا في الألف الثانية قبل الميلاد.

كان أول حديد تم تحضيره بالصهر على شكل فطيرة من كتلة إسفنجية ضمن خبث شبه سائل لأن درجة حرارة انصهار الحديد الفعلية 1535 درجة مئوية. ولكن هذه الأفران كانت كافية لاستخلاص معدني النحاس والبرونز من خاماتها عن طريق الصهر والاختزال وهما من أقدم المعادن التي استعملها الإنسان على الأرض؛ إذ إنه يحتاج لاستخلاصها لحرارة لا تتعدى 1100 درجة مئوية بحيث يتم الصهر والاختزال بواسطة إضافة الفحم والخشب للمعدن الخام في أفران بدائية؛ لذلك لم يتوصل الإنسان إلى الحديد إلا بعد ظهور صناعة النحاس بما لا يقل عن 1500 عام.

وبمضي الوقت أخذ العمال يزدون من الموقود واستخدموا مضافات ضخمة لرفع درجة حرارة الأفران؛ ولما انصهر الحديد صار هو المعدن العام وصار النحاس هو المعدن الخاص وبقية الفضة هي الأميرة وبقية الذهب هو الملك؛ ومع ذلك فإن الحديد النقي كان أليين من البرونز الذي يعتبر مادة رديئة المستوى في صناعة السلاح وبعض التطبيقات الأخرى التي تتطلب عمراً أطول. وكان تسخين الحديد في وجود الكربون الذي يأتي عادة من الفحم المستخدم في النار بالكربنة في قيد الغيب إلى ما قبل الميلاد بألف عام بحيث اكتشف الهنود والصينيون وبعض القبائل الهندوأوروبية تقنية الحديد المكربن الصلب.

لذلك كانت السيوف الهندية المصنوعة من الصلب رمز القوة واليأس عند العرب وكانوا يستوردونها من الهند ويسمون الواحد منها السيف "المهند" نسبة إلى الهند ويعتبرونها أشد السيوف وأقواها في العصر الجاهلي. وعندما نزل القرآن في عصر ازدهار الحديد كان لابد من أن يخاطب الناس على قدر عقولهم ومعارفهم وعلمهم وكان الحديد رمز القوة واليأس الشديد. وكان من المستحيل أن يقول لهم: "إن هناك في الجدول الدوري للعناصر ذرات أثقل من ذرة الحديد وأكثر بأساً بملايين.. بل ببلايين المرات.. مثل ذرة "اليورانيوم" التي صنعت منها أول قنابل ذرية انشطارية؛ وضربت بها" هيروشيما" و"نجازاكي"؛ وماتت مئات آلاف من البشر في لمحة بصر؛ أو أن يحدثهم عن أصغر الذرات، وهي الهيدروجين التي تطلق طاقة عالية جداً عند اندماجها ذوياً. فعلى سبيل المثال لو استعرضنا صوراً من مختلف الطاقات التدميرية مقدرة بالطن في المواد شديدة الانفجار "الترينيترومين" التي يرمز لها "ت.ن.ت" لوجدنا أن جميع المتفجرات التي انفجرت في الحرب العالمية الثانية تقدر بـ 5 ملايين طن "TNT"

والمقنبلة الهيدروجينية التي قامت الولايات المتحدة بتجربتها عام (1954م) عن طريق الماندماج النووي للهيدروجين تقدر الطاقة المنطلقة منها بـ 15 مليون طن "T.N.T"؛ وهو ما يساوي ثلاثة أمثال جميع المتفجرات التي انفجرت في الحرب العالمية الثانية. وهناك الآن قنابل فوق هيدروجينية تقدر الطاقة المنطلقة من المقنبلة الواحدة بخمسمائة مليون طن "T.N.T"؛ أي ما يساوي مائة مرة مختلف الطاقات التدميرية في الحرب العالمية الثانية. ويقول بعض غير المتخصصين في الفيزياء والفلك: "إن ذرة الحديد هي أقوى الذرات من حيث البناء والتركيبة وإنها أشد الذرات بأساً"؛ ولكن العلم الحديث يقول: "إن ذرة الحديد ليست هي أثقل الذرات؛ فذرة "اليورانيوم" أثقل منها أكثر من أربع مرات، والطاقة المنطلقة في ذرة "اليورانيوم" في الانشطار النووي بأسها يفوق الحديد ببلايين المرات كما أن ذرة الحديد ليست أقوى من الذرات من حيث البناء والتركيبة؛ فالمعروف فيزيائياً وكيميائياً أن أقوى الذرات من حيث البناء والتركيبة هي الذرات التي يكون مدارها الأخير مكملاً بالعدد اللازم من الإلكترونات؛ لذلك فهي في حالة استقرارية كاملة؛ ومن هنا نسميها العناصر "النبيلة" أو الغازات الأملية كغاز "الهيليوم" و"النيون" و"الأرجون" و"الكريبتون" و"الإكسينون" و"الرادون" لأنها لا تتفاعل والعناصر الأخرى بسهولة بينما نجد أن المدار الأخير لذرة عنصر الحديد غير مكتمل بالإلكترونات؛ لذلك تنشط الذرة في التفاعل وغيرها من العناصر لاستكمال مدارها الأخير من الإلكترونات والوصول إلى حالة الاستقرار المطلوبة للبناء القوي. كما أن الحديد إذا ما قيس بالنحاس والفضة والذهب فإن وزنه الذري أقل؛ لذلك فهو أكثر انتشاراً في الطبيعة منهم ولكنهم أكثر منه في الوجود في الحالة الخالصة؛ ومن هنا تأتي قوتهم وبأسهم الاقتصادي والمالي المتميز عن الحديد وبالذات الفضة والذهب.

وهناك أغرب من ذلك؛ فعنصر كعنصر الكربون الذي هو عبارة عن الفحم أو "الجرافيت" إذا ما تم توزيع ذراته داخل شكل بلوري معين سواء عن طريق الطبيعة أو الصناعة ليعطينا مادة الماس؛ فإن هذا الماس أقسى وأقوى من كل أنواع الحديد والصلب ويستطيع خدشها جميعاً لأن معامل صلابته أعلى!!

هل الشمس خالية من الحديد؟

ويُدعى البعض أن الشمس لا تحتوي على الحديد؛ لذلك جاء الحديد إلى الأرض من خارج المجموعة الشمسية عن طريق النيازك الحديدية؛ يعلم بأن الثابت علمياً الحقائق التالية:

إن أكثر عشرة عناصر شيوعاً في الشمس هي: "الهيدروجين" و"الهيليوم" و"الأوكسجين" و"الكربون" و"النتروجين" و"النيون"

و"السليكون" و"الماغنسيوم" و"الحديد" و"المكبريت".

وبالتحليل الكيميائي للنيازك الأصلية وجد أن هناك تشابهاً كبيراً بين الوفرة العنصرية في هذه النيازك وفي الشمس؛ مما يدل على أن أصلهما واحد؛ وهو ما نسميه بـ "السديم الشمسي" الذي تكونت منه الشمس وكواكبها وتوابعهم وما يجول داخل هذه المجموعة الشمسية من نيازك ومذنبات والغلاف الجوي للشمس يتكون من ثلاث طبقات هي: طبقة "الفوتوسفير" الطبقة المرئية، وطبقة "الكروموسفير" الطبقة الملونة باللون الأحمر، وطبقة "الكورونا" إكليل الشمس والحديد موجود في الطبقات الثلاث في صورته الذرية أو صورته الأيونية تبعاً لدرجة حرارة الطبقة؛ فـ "الفوتوسفير" درجة حرارته حوالي ستة آلاف درجة مئوية و"الكروموسفير" حوالي خمسين ألف درجة مئوية أما إكليل الشمس فدرجة حرارته فوق المليون درجة مئوية. ومنذ حوالي قرن أو أكثر عند تحليل ضوء الشمس تبين وجود خطوط طيف للحديد أصبحت تستخدم بعد ذلك في دراسة المجال المغناطيسي للبقع الشمسية؛ لما تحدثه هذه البقع نتيجة لقوة مجالها المغناطيسي من انقسام خط الطيف إلى خطين تكون المسافة بينهما -والمقاسة بـ "الأنجستروم" دليلاً على مدى قوة المجال المغناطيسي لهذه البقع وتغيره من يوم لآخر.

كما كان من المفارقات العجيبة أنه عندما تم أخذ طيف لإكليل الشمس في أثناء كسوف كلي اتضح أن هناك خط طيف ليس له مثيل في الأرض؛ وظن العلماء أن هذا عنصر مميز للشمس غير موجود على الأرض ولكنهم لم يستطيعوا أن يجدوا له مكاناً في الجدول الدوري للعناصر واتضح بعد ذلك أنه نتيجة للحرارة العالية لطبقة "إكليل الشمس" التي لم يكن أحد يتوقعها؛ حيث تفوق المليون درجة أن ذرة الحديد تأتي وتهرب منها ثلاثة عشر إلكترون؛ أي نصف الإلكترونات المحيطة بها؛ نتيجة للحرارة العالية؛ إذن فالحديد موجود في جميع طبقات الغلاف الجوي للشمس بما فيه طبقة السطح "الفوتوسفير" ودخل البقع الشمسية التي تعتبر مناطق باردة على سطح الشمس؛ نتيجة لمجالها المغناطيسي العالي الذي قد يزيد عن ألفي "جاوس" بينما تنقص درجة حرارتها عن سطح الشمس بما يزيد عن ألفين درجة مئوية في بعض الأحيان.

ما هي آلية إنتاج الحديد في الكون؟

إن الآلية الوحيدة المعروفة لدينا والتي يمكن أن تنتج العناصر الثقيلة هي الاندماج النووي؛ حيث تتحد البروتونات لتعطي ذوى "الهيليوم"؛ ومنها تشتق ذوى الكربون والعناصر الأثقل وإن هذه التفاعلات تكاد تكون مستحيلة في أي مكان باستثناء باطن النجوم؛ إذ لا تتوفر الحرارة والكثافة العالية إلا هناك وبعد اندماج ذوى "الهيدروجين" لإنتاج "الهيليوم" وهذا أطول تفاعل وهو في الوقت نفسه أكثر التفاعلات الاندماجية إطلاقاً للطاقة. وكلما كانت الفترة الزمنية لإنهاء التفاعل أقصر. وتنتهي سلسلة التفاعلات الاندماجية عندما يفقد الغاز إمكانية الاحتفاظ بدرجة حرارة تستطيع موازنة أثره الجاذبي؛ ويحدث ذلك عندما يتكون الحديد 56 بوصفه منتجاً نهائياً لسلسلة التفاعلات الاندماجية؛ حيث يعتبر الحديد في هذه الحالة كعادم الاحتراق في باطن النجوم وغير قابل للاندماج النووي لإعطاء طاقة جديدة وعنصر جديد في باطن النجم وعندما تنخفض درجات الحرارة ينخفض بدوره ضغط الإشعاع والغاز؛ وعندما يصبح ضغط الغاز ضئيلاً جداً تتمخض حالة عدم الاستقرار عن انفجار هائل يعرف بـ "المتجدد الجبار" لقد حدث انفجار "المتجدد الجبار" في مجرتنا منذ عهد المسيح.

إن سديم السرطان بقايا "متجدد جبار" انفجر عام 1054م وتم رصده من قبل الفلكيين الصينيين من سلالة "سانغ" وورد في وصف هذا الرصد: "في أول سنة من حقبة "شى" هو (1054) في القمر الخامس وفي يوم "شى شون" (الرابع من يوليو) ظهر نجم ضيف واختفى تدريجياً خلال سنة".

وتعاني النجوم التي تتجاوز كتلتها خمسة أضعاف كتلة الشمس مصيراً درامياً عبر عدة أطوار من التمدد والتقلص. وتتكون العناصر الثقيلة فيها، مثل: "الماغنسيوم" "السليكون" "الكوبالت" "النيكل" وهكذا حتى الحديد (56). وفي بعض أصناف هذه النجوم تختتم مرحلة العقمة الحمراء بإحداث كارثي هو انفجار "المتجدد الجبار" الذي يرافقه تشظي الأقسام الخارجية للنجم وقد تجاوز إشعاع "المتجدد الجبار" إلى درجات حرارة هائلة (حتى عدة آلاف من ملايين الدرجات)؛ مما يسمح بتكون أثقل العناصر كـ "اليورانيوم".

ما هي العقمة الحمراء للنجم؟

عندما تستنفد كمية "الهيدروجين" في باطن النجم وتحولها إلى "هيليوم" وعناصر أثقل. تكون نهاية النجم قد اقتربت واقتربت معها منطقة احتراق "الهيدروجين" من محيط النجم؛ هذا الواقع يجبر الأقسام الخارجية من النجم على الابتعاد أكثر عنه؛ حتى يعاد تحقيق التوازن وينتفخ النجم إلى مائة ضعف حجمه ويصطبغ باللون الأحمر متحولاً إلى ما يعرف باسم "العملاق الأحمر"؛ ومن المتوقع أن تبلغ الشمس هذه المرحلة بعد حوالي 7 مليارات عام من الآن؛ وعندما تبلغ الشمس هذه المرحلة ستبتلع عطارد والزهرة وربما الأرض!! وستكون درجة الحرارة السطحية للشمس "العملاق الأحمر" حوالي 3000 درجة مئوية؛ تطبعاً سيبتخر الغلاف الجوي

للأرض ومعها المحيطات وستتحول القشرة الأرضية إلى جمر ملتهبة أما المصير النهائي للأرض فإما أنها ستترنح في المدار مقترية من باطن الشمس أو أنها ستندفع بعيداً بفعل الغازات المتجددة؟.